



مظاهر الفخر في شعر السموأل بن عادي

Manifestations of pride in the poetry of Al-Samaw'al bin A'dia

د.سيد فضل الله ميرقادري

أبوطالب توكللي بور*

جامعة شيراز (إيران)

جامعة شيراز (إيران)

sfmirghaderi@gmail.com

tavakolya86@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
يعدّ العصر الجاهلي من العصور التي ازدهر فيها فنّ الفخر وكانت لطبيعة البيئة الصحراوية أثر هام في ذلك، حيث إنّ تلك البيئة التي كانت ممزوجة بخطورات الطريق والشدائد، قد أذاقتهم مرارة الحياة ممّا أدت إلى تدربهم بالفروسية والطعان لكسب القوة والشجاعة وأخيراً الاعتزاز بأنفسهم أو قبائلهم على الخصائل التي اكتسبوها في تلك البيئة؛ يعدّ السموأل بن عادي من أحد هؤلاء الشعراء، حيث إنّ كثيراً ما يعبر عن فضائله وأمجاد قومه في قصائده؛ فلذا تسعى هذه الدراسة من خلال دراسة قصائد الشاعر كشف أهم مظاهر الفخر وميزاته في شعره مع التركيز على المنهج الوصفي - التحليلي؛ ومن أهمّ النتائج التي توصّلت إليها هذه الدراسة هي أنّ كلا النوعين من الفخر الذاتي والقبلي تجلّ في قصائد الشاعر، لكن الفخر الذاتي تميّزت قيمته أكثر وذلك بسبب اتجاهات الشاعر الخاصة إلى القيم والفضائل الأخلاقية التي تدلّ على بلوغ فكري خاصّة في مجتمع تأثر بالبيئة الصحراوية العنيفة.	تاريخ الارسال: 2024/07/14 تاريخ القبول: 2024/11/17
	الكلمات المفتاحية: ✓ السموأل ✓ الفخر ✓ الفخر الذاتي ✓ الفخر القبلي
Abstract :	Article info
<i>Praeclarum tempus islamicum unum temporum habetur, in quibus ars superbiae floruit, et ambitus solationis multum in hac re valuit, cum haec rerum discrimina viae et laborum misceretur, quae ad has amaritudines ducebant. eos in equitando et decertando exercent, ut vires animique adipiscantur, postremo superbe sibi suisque tribubus. Al-Samwal bin Adia unus ex his poetis consideratur, et hoc studium praecipuas manifestationes superbiae eiusque proprietates in poesi revelare studet, per carmina poetae studens, cum umbilico in descriptione et analytica accessu Praecipuus huius studii eventus est, quod superbia personalis et nationalis in poesi inest, quantum ad valorem superbiae desertum ambitus.</i>	Received 14/07/2024 Accepted 11/11/2024
	Keywords: ✓ Al-Samu'al ✓ gloria ✓ personalis gloria ✓ tribus gloria

1. المقدمة:

يعدّ الفخر من إحدى المشاعر الفطرية التي قد يحسّ به الإنسان ويجريبه وهو طريقة لإثبات أجداده ومحاسنه وينبع عادة من حبّ الذات لكنّ الفخر مع وروده في ساحة الأدب عُرف كفنّ من الفنون الشعرية خاصّة في الشعر العربي القديم ومع مراجعتنا للشعر العربي القديم يتبلور عنصر الفخر تبلوراً جلياً.

والعصر الجاهلي من أبرز العصور العربية التي عرفت ذروة الفخر عند الشعراء العرب وقد شاعت هذه الظاهرة الشعورية الإنسانية بين الشعراء الجاهليين لاقتضاء البيئة الصحراوية القاسية التي كانت تشهد الحروب والتراعات المستمرة بين القبائل ولم يحكم فيها قانون بل هي ساحة بين الخيارين وهما الموت والحياة. وطبعاً الصراعات الموجودة في تلك الفترة من ناحية وشدائد البيئة الصحراوية من ناحية أخرى خلقت للعربي الجاهلي روح الشجاعة والبطولة والصبر والمقاومة تجاه مصائب الحياة مما أدّت إلى اعتزازهم والتباهي بنفسمهم أو قبائلهم على اكتساب بعض الأوصاف والأجناد التي اكتسبوها في تلك البيئة فقد عرف الشعر الجاهلي اتجاهاً للفخر: الفخر الفردي والفخر القبلي.¹

وقد تناول مفهوم الفخر شعر كثير من الشعراء الجاهليين وكان السموأل بن عاديا في دائرة هؤلاء الشعراء إضافة على أنّه في طبقة شعراء الحكمة بسبب قصائده الحكمية ذات الفضائل والمكارم الأخلاقية. وبما أنّ السموأل من الشعراء الذين قلّت الدراسات عنهم فلذا اخترناه من بين الشعراء الجاهليين لدراسة قصائده في مجال الفخر. إذن تدور هذه الدراسة حول صورة الفخر في شعر السموأل بن عاديا وتهدف كشف أهم مظاهر الفخر وميزاته وأنواعه في ديوانه الشعري وتعتمد على المنهج الوصفي - التحليلي في دراسة القصائد.

أسئلة البحث:

يهدف هذا البحث من خلال دراسة قصائد الشاعر في مجال الفخر الإجابة عن جملة من التساؤلات، ومن أبرزها:

1- ما المواضيع التي يفتخر بها الشاعر؟

2- ما أهمّ ميزات الفخر في قصائده؟

3- كيف يمكن الجمع بين فضائله الأخلاقية ومواضع تعبّر عن بطشه الشديد؟

وللإجابة على هذه التساؤلات علينا أن نقسّم الدراسة إلى قسمين:

القسم الأول يتناول المفاهيم الأساسية التي تقتضي دراستها قبل الورود في النصّ الأصلي للدراسة فتتطرق في هذا القسم أولاً إلى تعريف الفخر ودراسة أنواعه وكيفية تجلّيه في العصر الجاهلي وثانياً دراسة موجزة لحياة الشاعر.

¹ . عبد الرحمن، عفيف، (1984م)، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ط1، بيروت، دار الأندلس، ص236.

والقسم الثاني يتناول أبرز مظاهر الفخر التي تجلّت في الديوان الشعري للشاعر ونختار أهم قصائده في مجال الفخر بطريقة استقرائية ثم نقوم بدراستها وتحليلها وأخيراً الاستنتاج ممّا توصّلنا إليه من خلال دراستنا.

خلفيّة البحث:

ومن أهم الدراسات التي تناولت موضوع الفخر وارتبطت بموضوع دراستنا ارتباطاً أكثر يمكننا الإشارة إلى:

- دراسة لحريجي والآخرين (1390هـ.ش). « تصوير فخر در سروده های ابوفراس حمداني » (= صورة الفخر في شعر أبي فراس الحمداني). قام الباحثون بدراسة صورة الفخر في قصائد أبي فراس مستهدفين للوصول إلى أنواع الفخر ومراحلته وسماته في ديوان الشاعر ومن ثم تناولت الدراسة أنواع الفخر ومراحلته ومظاهره في ديوانه والدوافع التي سحبت الشاعر إلى هذا الفن وأخيراً توصّلت دراستهم إلى أنّ الشاعر ارتكز اهتمامه في الفخر قبل السجن على عدد أفراد قبيلته ولكن في أيام الأسيرة يتغيّر هذا الاتجاه شيئاً فشيئاً ويتحوّل إلى الفخر الفردي. ومن أهم الأوصاف الذاتية والقبلية التي اعتر بها الشاعر هي الشجاعة، والكرم، والفتوة وعدة فضائل أخرى، وبشكل عام يمكن اعتبار هذه الدراسة من أدق الدراسات التي تمّت في مجال الفخر.
- ودراسة لسليمان المؤمني وسالم المؤمني (2013م). « مظاهر الفخر في شعر أبي الطيب المتنبّي ». بداية قام الباحثان بدراسة شخصية الشاعر والعوامل المؤثرة عليها وثم تطرقا إلى أهمّ مواضع يفتخر فيها وثم درسوا قصائد الشاعر بعضها دراسة توصيفية تحليلية لكنهما لم يحددا مظاهر الفخر في قصائد الشاعر بشكل دقيق ومنسجم وتخلو هذه الدراسة من قسم الاستنتاج.
- دراسة أخرى لشوقي عبدالمحسن (2015م). « الفخر الذاتي في معلقة طرفة: دراسة بلاغية نقدية ». بداية تطرّق الباحث في الصفات والأفعال التي افتخر بها الشاعر وكشف عن الأساليب والخصائص التي وظّفها الشاعر في ذاك المجال، وأخيراً استنتج بأنّ أسلوب الشرط هو من أبرز الأساليب التي استخدمها الشاعر أكثر فأكثر للتعبير عن ذاته المفخرة.
- دراسة للعرداوي وأحمد (2019م). « الذات المفخرة في جمهرة أشعار العرب ». تناولت هذه المقالة دراسة موضوع الذات المفخرة في كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي خطّاب قرشي وقام الباحثان بداية بتبيين مفهوم الذات والفخر وثم تطرقا إلى مقومات الفخر في الشعر القديم وذكرنا نماذج من قصائد الشعراء القدامى في مجال الفخر وقاما بدراسة الأشعار دراسة تحليلية وتوصيفية وأخيراً توصّلت هذه الدراسة إلى أنّ الفخر الذاتي يمكن رؤيته في جمهرة أشعار العرب بشكل كبير ومع تنوع الأساليب الشعرية خاصة في طبقة المحمهرات والمذهبات، ومن بين القيم الأخلاقية للشجاعة والكرم دور أبرز. لكنّ الدراسة مع أنّ عنوانها يشير إشارة حصرية إلى الفخر الذاتي ولكن نرى الباحثين قد تطرقا في دراسة بعض الأشعار إلى الفخر القبلي.

- ودراسة للمطري (د.ت). « الفخر الذاتي في شعر أبي فراس الحمداني ». بداية تطرقت الباحثة في أهم دوافع الفخر الذاتي عند أبي فراس وقسمت بعد ذلك دراستها إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول: دراسة مضامين الفخر الذاتي في قصائد أبي فراس دراسة تحليلية وتوصيفية والقسم الثاني: تطرقت الباحثة إلى الأساليب والفنون البلاغية الواردة في شعر الشاعر وفي القسم الثالث تناولت دراستها أهم الأغراض أو دلالات الفخر الذاتي عند الشاعر وأخيراً توصلت هذه الدراسة إلى أنّ الشاعر عبّر عن ذاته المفخرة كعاملٍ يعوّض به فقدان حريته ومعاناته وكأنّه يقاتل الضعف ويهزم الألم بعد أسره؛ لكن النتائج المذكورة في هذه الدراسة لاتضم جميع ما درستها الباحثة حيث إنّها تخلو من ذكر الأساليب والفنون التي استخدمها الشاعر في فنّ الفخر. وإضافة إلى الدراسات المذكورة تعددت دراسات كثيرة أخرى في مجال الفخر لكننا تطرقنا فيما تعلّقت أكثر بدراستنا وعموماً مع كثرة هذه الدراسات لم يدرس حتى الآن باحث مظاهر الفخر في شعر السموأل بن عاديا دراسة تحليلية ودقيقة.

2. الفخر لغةً واصطلاحاً

كلمة الفخر بفتح الفاء أو بفتح الفاء والخاء، كما جاءت في المعجمات ومنها لسان العرب، هي بمعنى التمدح بالخصال¹ وقد جاءت في كتاب تاج العروس من جواهر القاموس: «هي ادعاء العظم والكبر والشرف»² ولكن الفخر من الناحية الاصطلاحية عادة يحمل نفس المعنى السابق اللغوي وهو التباهي بالخصال الحسنة والتغني بالأعجاب والمكارم؛ وإنه من الصفات التي تتواجد أحياناً في الإنسان وكأنّه من طبيعته واعتياداته وعادةً من دواعي الإمتاع واللذة أن يفوق الإنسان نفسه على الآخرين ويحس بالارتياح عندما يعبر عن إيجابيات في ذاته وعموماً لا يراها في الآخرين، وعندما تتغلب فيه تلك الإيجابيات فتبرز هذه السمة عنده فيأخذ يفخر ويعتز بنفسه. وربما نقدر أن نفترض بأنّ الفخر إذا خلا من تلك السمة أي الخيال ويكون منطبقاً بالواقع ونابعاً من الأوصاف الطيبة، فيعتبر كعاملٍ محفزٍ لحثّ الأشخاص على بعض القيم والخصائل الأخلاقية «ويمكن أن يكون للفخر فوائد إيجابية تتمثل في تعزيز الإبداع، والإنتاجية، والإيثار»³

3. الفخر الذاتي والقبلي

للفخر دائرة واسعة من حيث نبوعه وغالباً ما نرى بأنّ الإنسان يفتخر ببعض الأوصاف التي تتعلق به من الخارج مثل الاعتزاز بأفراد أسرته وقبيلته، وأنسابه وأجداده أو أحياناً يفتخر ببعض الأوصاف التي اكتسبها نفسه وهي نابعة عن

¹ ابن منظور، جمال الدين (2009م). لسان العرب. م5. دار الكتب العلمية، ص 57.

² الزبيدي، مرتضى، (2011م)، تاج العروس من جواهر القاموس، م13، دار الكتب العلمية، ص 170.

³ السيد عبده، عبد الهادي، (2021م)، المعرفة بين الانفعال والأخلاق، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 402.

ذاته مثل التحلي بالصبر والحلم، والعلم والوقار؛ وكما نشهد هذين الاتجاهين للفخر في الشعر الجاهلي ولكن مع الاختلاف في مضامينه وكان الشعراء الجاهليين يتباهون بطولاتهم وقوتهم أو محاسنهم وكانت الأسواق الأدبية قد أتاحت لهم هذه الفرصة لإبراز مفاخرهم إما المفاخر الذاتية مثل المحاسن الفردية أو المفاخر الجماعية مثل عدد أفراد القبيلة وشجاعتهم وعاداتهم المتميزة. إنّ الفخر تنوّع بأنواع متعددة كما قسم الفاحوري الفخر بالذاتي، والحزبي، والسياسي، والديني، والحزبي¹. أما العصر الجاهلي فقد شهد النوعين من الفخر وهما:

- الفخر الذاتي (الفردية) : وهو تغني الشاعر بما يدور حوله من سمات أو أبعاد لا يراها عادة في شخص آخر.
- الفخر القبلي (القومي) : وهو تغني الشاعر بخصائل قومه وإنجازاتهم وأبجادهم.

والفخر في عصرنا الحاضر اتخذ دلالة سلبية في أذهاننا وعموماً يرادف الكبرياء أو له صلة بالأنانية لكن الفخر في العصر الجاهلي بما أنّه شاع بين الشعراء وصار من أهم مضامينهم الشعرية فدون النظر إلى أهم الدوافع والأسباب لنشأة الفخر لا يمكن اعتباره في دائرة الأمور السلبية المتعلقة بذات الإنسان ونحن في هذا الصدد بحاجة إلى التطبيق في ظاهرة الفخر ومقتضيات الحياة الجاهلية.

4. الفخر في الشعر الجاهلي

يعدّ الفخر من أبرز الأغراض الشعرية السائدة في الشعر الجاهلي حيث إنّهُ عُرِفَ كفنّ من الفنون الشعرية وكثير من الشعراء العرب اشتهر بهذا الفن وبمنظرة عابرة إلى الثقافة العربية نرى أنّها مشبوعة بهذا العنصر حيث لا تخلو منه أبداً ويمكن أن نعتبر الفخر من أهم الأغراض الشعرية في العصر الجاهلي وقلماً نجد شاعراً عربياً آنذاك لم يتناوله في شعره ولكن «لم يكن الفخر هدفاً بحد ذاته، لكنه كان وسيلة لرسم صورة عن النفس ليخافها الأعداء فتجعلهم يترددون طويلاً قبل التعرض للشاعر أو لقبيلته»² ويمكن رؤية ذلك في إحدى من قصائد عدي بن ربيعة (المهلهل) حيث يعبر عن شدة البأس وقتال قومه ويعتقد أنهم قادرون على فشل عديد من القبائل:

كَذَبَ الْقَوْمُ عِنْدَنَا فِي الْمَقَالِ
نَسْلُبُ الْمُلْكَ بِالرَّمَاكِ الطِّوَالِ
بِجُمُوعِ زُهَّاءُهَا كَالْجِبَالِ
وَعَقِيلٌ وَصَالِحٌ بَنُ هَالِلِ³

زَعَمَ الْقَوْمُ أَنَّ جَارُ سَوْءٍ
لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَنَا يَوْمَ سِرْنَا
يَوْمَ سِرْنَا إِلَى قَبَائِلِ عَوَفٍ
بَيْنَهُمْ مَالِكٌ وَعَمْرُوٌّ وَعَوَفٌ

¹ الفاحوري، حنا، (د.ت)، الفخر والحماسة، ط5، القاهرة، دار المعارف، ص5.

² محمد، سراج الدين، (2000م)، الفخر في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، ص5.

³ المهلهل، الديوان، ص70.

كما يتّضح أنّ الشاعر يرى فخر قومه في قوّتهم وقدرتهم في الطعان وغلبتهم على كثير من قبائل العرب، ولكن كثير من الباحثين اتفقوا على أنّ طبيعة البيئة الصحراوية التي كانت ممزوجة دائماً بالحروب والتزال هي من أهم الأسباب والدوافع لبروز الفخر في الفترة الجاهلية، وكأنّ البيئة الصحراوية العنيفة التي أوجدت فيهم روح القتال والحرب أجبرتهم أن يتدربون على البطولة والقوّة والطعان وأخيراً يتباهون بتلك الأوصاف ويفخرون بها في شعرهم كفنّ من الفنون الشعرية مستهدفين لإزالة تعرّض الأعداء لهم؛ واعتقد بعض الباحثين بأنّ الفخر ليس مشاعر متناقلة من قبل الناس من زمن إلى زمن، بل هو بعث لزمن الحيوية في الذات وذلك من خلال رسم صورة المثل العليا التي تعارف المجتمع آنذاك.¹

على أيّ حال، للفخر في الشعر العربي عامة وفي الشعر الجاهلي خاصة مكانة مرموقة وعالية وعديد من شعراء تلك الفترة قد تناولوه في شعرهم مباشراً أو غيره ومنهم: عنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعمرو بن كلثوم، وعامر بن الطفيل، وعبيد بن الأبرص وإلخ. ولكن «مع ظهور الإسلام تطوّر هذا الموضوع على أيدي الشعراء المسلمين، فقد عمل الإسلام على توحيد تلك القبائل، فأصبحت الدعوة إلى الله المرتكز الذي يركز عليه الشاعر المسلم في فخره، فنحى الفخر منحاً جديداً مما أدّى إلى غلبة الفخر الجماعي، حيث وجدنا الشعراء يفتخرون بقبائلهم لأنّها نالت شرف السبق إلى الإسلام.»²

وقد منع الله عز وجل الإعجاب الشديد بالنفس في الآية الكريمة : "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ"³ ومن المعلوم أنّ كلمة فخور في هذه الآية اسم المبالغة من مادة فخر وتدل على الكثرة والشدة في الفخر. أما بالنظر الفاحص إلى هذه الآية نلاحظ أنّ الاختيال قد سبقت الفخر وبما أنّ الشخص المختال ممزوجة أفكاره بالخيال والأوهام ويخال على أنّه صاحب الأفضليّة بالنسبة إلى الآخرين، فتأتيه حالة من الإعجاب الشديد بنفسه.

5. السموأل في ساحة الحياة

بالنسبة إلى حياة السموأل ونسبه هناك أقوال مختلفة بين الباحثين وما هو المعروف بينهم أنّه السموأل بن عاديا (أو صموئيل) وقيل أنّه كان من قبيلة أزد وكان عاديا اسم جدّه واسمه الكامل هو السموأل بن غريض بن عاديا ابن حبا الأزدي. عاش السموأل في القسم الثاني من القرن السادس الميلادي وكان عبرانياً ويدين على الديانة اليهودية.⁴ وبما أنّ قاطبة المصادر تذكر أنّه كان يهودياً، لكن الكاتب الأب لويس شيخو اليسوعي ارتاب في هذا الرأي وأنسب

¹. الديلمي، نهي محمد، (2019م)، الحياة والموت في شعر صدر الإسلام، كلية الآداب، جامعة الموصل، دار الخليج، ص166، 167.

². المصدر نفسه، الصفحة 167

³. سورة اللقمان، الآية 18

⁴. عبد الرحمن، عفيف، (1996م)، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ط2، بيروت، دار المناهل، ص119.

السموأل إلى الغسّان، والغسانيون كانوا من النصرانيّين ويعتقد أيضاً بأنّ الرواة ذكروا منه بعض نماذج شعريّة يشير فيها سموأل إلى المسيح والحواريّين، حيث إنّهُ يقول:

وفي آخر الأزمان جاء مسيحنا
فاهدي بني الدنيا بني
التكامل¹

وفي موضع آخر يقول:

وسليمن والحواريّ يحيى
و متى يوسف كآني وليت²

وعلى أساس البيتين أعلاه اعتقد اليسوعي أنّ «قوله الحواريّ يحيى ومتّى يدلّان على الإنجيليين يوحنا فكلّ ذلك يزيدنا ارتياباً في يهوديته و يقيناً في نصرانيّته. ثمّ إنّ في قصيدته اللامية الشهيرة بيتاً رواهُ أبو تمام وغيره كثيرون يمدح فيه سموأل بني الديان من أعيان نصارى نجران وكلّ هذه دلائل تؤيد رأينا على نصرانيّة سموأل ... ولعلّ فصل الخطاب في هذا أن يُقال إنّ سموأل كان من إحدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانيّة.»³

كان سموأل يعيش في زمن حياة إمرئ القيس الكندي واشتهر في عصره وفاءً وخلقاً وصار نموذجاً مثالياً في بعض الأوصاف الكريمة حيث إنّ العرب كانوا يمثّلونه بالوفاء وشاع بينهم مثال " أوفى من سموأل " .

وقد تناول شعر سموأل كثيراً القيم الأخلاقية والمكارم الرفيعة وتمتاز لغته الشعرية بالبساطة والوضوح والإيجاز ولكن لم تبق منه إلا بعض القصائد ويعتقدون أنّ معظم قصائده منحولة وذلك بسبب توافرها على الموضوعات الدينية، ومن إحدى قصائده التي اشتهر بها كثيراً هي لاميته المعروفة باسم " إنّ الكرام قليل " وبالنظر إلى قصائده نعرف أنّه من المتأملين في قضايا الحياة ولم تكن أفكاره معتقلة بالثقافة والقيم القبلية بل هو يتمتّع بالثقافة الواسعة والفكرة المتعالية خاصة في البيئة التي تعاني من العصبية.

6. مظاهر الفخر في شعر سموأل

عادة الإنسان في موضع التعبير عن مفاخره يسعى إظهار محاسنه للمخاطب بطريقة غير مباشرة حيث يخفيها وراء الجمل والعبارات في كلامه ولا يعرضها مباشرة ولكن هذه الظاهرة لانراها بوضوح في الشعر القديم والسبب لها ربّما

¹. سموأل، الديوان، الصفحة 26

². المصدر نفسه.

³. شيخو اليسوعي، لوئيس، (1920م)، ديوان سموأل، ط2، المطبعة الكاثوليكية لآباء اليسوعيين، ص5.

يعود إلى بعض الاقتضاءات للبيئة أو اعتبار الفخر كفنٍّ من الفنون الشعرية. فلذا سنرى لاحقاً أنّ السموأل في موضع التعبير عن الفخر أو الاعتزاز بنفسه أو قومه يوظف عادة ضمير المتكلم ويظهر مفاخره دون أي حجاب، كما نرى هذا في شعر باقي الشعراء آنذاك؛ وقد شاع هذا النوع من الفخر عند الشعراء الجاهليين وبمكنا التعبير عن هذا النوع بالفخر المباشر وقلماً نرى في الشعر الجاهلي الفخر غير المباشر؛ لكننا لدراسة قصائد السموأل في مجال الفخر نركز أكثر على النوع الأول من الفخر أي الفخر المباشر. ومن بين مظاهر الفخر ندرس أولاً مظهر الوفاء لاشتهار الشاعر به بين العرب وبعد ذلك سنتطرق باقي مظاهر الفخر التي برزت أكثر في قصائده.

6.1. الوفاء

إنّ الحياة في بيئة لا يحكمها القانون لها سمات ومقتضيات خاصة ومن العادي أنّ البدوي دائماً يهدده الخون فإنّ هذه الحياة البدوية يُراد لها مزيداً من الشرف والوفاء وإنّ أحقر الناس هو أنقضهم في الأمانة، فإذا كان الوعد الصادق يعدّ من أهمّ الملزومات لا تصاف البدوي بالشرافة فالجاهليين دائماً يعزّون الوفاء وهو رمزٌ للإخلاص في عهودهم وبما أنّ الوفاء يتمثل في عدم نقض الوعد أو الأمانة فكان الجاهلي دائماً يحافظ على أمانات الآخرين ويعزّ أيضاً من تخلّق بهذه الميزة الرفيعة¹؛ وعلى أساس ما قيل فلا بدّ أن نعتبر السموأل رائداً حقيقياً للوفاء خاصة في تلك الفترة حيث إنّ العرب كانوا يمثّلون به عند التعبير عن ذروة الوفاء وهذا أمرٌ جدير بالاهتمام أنّ السموأل ليس فقط متّصفاً بالوفاء بل إنّ صار نموذجاً مثالياً في هذه الصفة ويمثّل به في كلام العرب.

وهذا المثل يعود إلى قصة وقعت بين السموأل وامرئ القيس بن حجر الكندي ولما خرج امرؤ القيس إلى القيصر أودع دروعه عند السموأل بسبب كثرة عددها وصعوبة حملها وبلغ الخبر المنذر وطمع أن يسلب تلك الدروع منه فأرسل حارث بن أبي ثمر الغساني إلى السموأل لكي يدخل حصنه ويسلب الأمانة التي أودعه امرؤ القيس عنده ولكنه لم يقدر على الدخول في الحصن فطلب منه الدروع أمّا السموأل فامتنع وآنذاك أحد أبناء السموأل كان يرجع من الصيد فاغتنم الحارث الفرصة وأسرّه حتى يدفع إليه السموأل الدروع وأبى السموأل فضرب الحارث عنق ابنه² وبعد هذه الواقعة اشتهر السموأل بوفاءه ومثّلت به عند العرب مثال "أوفى من السموأل" بسبب عدم خونه في الأمانة ولو أنّه قد ذاق مرارة مشهد قتل ابنه لكنّه افتخر بصداقة عهده ووفائه حيث إنّ يقول:

وَفَيْتُ بِأَدْرَعِ الْكَنْدِيِّ إِنِّي إِذَا دُمَّ اقْوَامٌ وَفَيْتُ³

1. الفاحوري، حنا، (د.ت)، الفخر والحماسة، القاهرة، دار المعارف، ص10.

2. شمس الدين، إبراهيم، (2013م)، قصص العرب، ج1، بيروت، دار الكتب العلمية، ص125.

3. السموأل، الديوان، الصفحة99.

ويوضح لنا هذا البيت أن الشاعر إضافة إلى إظهار سمة الوفاء في وجوده، يعلن أيضاً تألقه بهذه السمة بين القبائل والأقوام المختلفة وهذا يدل على أنه فريد ومنقطع النظير من حيث درجة الوفاء، وكأن الشاعر في الشطر الأول يخبر بوفائه وفي الشطر الثاني يبرز قيمته ودرجته؛ وهو يمجّد وفاءه لأنه نوع متميّز ولا يراه في الآخرين. الشاعر في موضع آخر يعلن بالصراحة أن فقره لا يسبّب خيانتة في أمانة بيده:

ضَيِّقَ الصَّدْرَ بِالْأَمَانَةِ لَا يُفْجِعُ فَقْرِي أَمَانَتِي مَا بَقِيَتْ¹

في الحقيقة السموأل يعتبر نفسه أشدّ التزاماً في عدم نقض الأمانة وهو في ذروة هذا الالتزام حتى عند الفقر أو الحاجة ولا يلحقه طمعٌ وجشعٌ وعندما استفزّوه على أن يطمع على الأموال الثمينة لامرئ القيس فأجاب:

وَقَالُوا: إِنَّهُ كَثُرَ رَغِيبٌ فَلَا وَاللَّهِ أَغْدَرُ مَا مَشَيْتُ²

إنّ السموأل في قصائده كثيراً ما يتغنّى بأمجاده وفضائله ومكارمه الأخلاقية ولكن من بين هذه الأوصاف تميّزت صفة الوفاء تميّزاً مثالياً ولها مكانة خاصة ويعود السبب في ذلك إلى شدة التزامه بأداء أمانة أموال امرئ القيس وسببت له هذه الواقعة مرارة قتل ابنه وحقاً تتجلى قيمة فخر عند الشاعر حين تغنيّه بشدة وفاءه.

إنّه في موضع آخر يبرز شدة التزامه بأداء الأمانة حتى في الظروف الصعبة، إنه يقول:

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ بِفَضْلِ مَا لِي حَقَّهُ عِنْدَ الشِّتَاءِ وَهَبَةَ الْأَرْوَاحِ³

6.2. الشجاعة والقوة

الشجاعة هي من أبرز مضامين يتناولها الشعر العربي القديم خاصة في مجال الفخر ومن الصعب أن نجد شاعراً جاهلياً يفخر بنفسه دون التعبير عن شجاعته، وقد تراءت في أذهاننا بأنّ الشجاعة هي تقابل كلمة الخوف ولكن هناك علاقة وثيقة بين الشجاعة والخوف؛ طبعاً الخوف أمر طبيعي ومتأصل في الإنسان ويجرّبه حيناً خلاف إرادته لكن الشجاعة هي نوع من الجرأة وهي تقرير الإنسان على مواجهة بعض المواقف أو الساحات رغم تواجد الخوف فيها ومن أخطرها هو ما يهدّد حياته.

¹. المصدر نفسه، الصفحة 83.

². المصدر نفسه، الصفحة 99.

³. السموأل، الديوان، الصفحة 123.

وبما أنَّ الفترة الجاهلية قد شهدت كثرة الحروب واستمرارها وكان النزاع بين الموت والحياة، فلا بد أن نعتبر عنصر الشجاعة والحماسة من أهم عناصر الحياة الجاهلية ومن أبرز السمات والقيم البارزة في شعر تلك الفترة، وقد أشبهت الصحراء آنذاك ساحة القتال والحرب وكأنَّ الصراع بين الموت والحياة دخلت في دائرة القانون حيث إنَّهم كانوا يتدربون على الطعان ويفخرون بأنَّهم يُقتلون في ساحة القتال حيث يعبر شوقي ضيف عن ذلك باستعذاب الموت واسترخاص القتل،¹ كما أنَّ السموأل في إحدى قصائده يعبر عن شجاعة قبيلته ويعتز بهم على أنَّهم لا يعتبرون القتل عاراً، حيث إنَّه يقول:

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَأَنَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
وَإِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
وَأَسِيفُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرَبٍ
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارَعَيْنِ فُلُولُ²

ومن الواضح أنَّ تعابير الشاعر عن مفاخر قبيلته تتصف بأجواء ملحمة وغالباً تلازمها المبالغة كما نشهد هذه الميزة في تعابير باقي الشعراء الجاهليين في موضع الفخر بقبائلهم؛ ومن سمات بارزة أخرى لتعابير السموأل في موضع الاعتزاز بقبيلته يمكن الإشارة إلى تلازم تعابير بوقائع أو أسباب تشهد على قوتهم أو شجاعتهم في القتال، وهذه السمة ولو نراها في المفاخر القبليَّة التي يعبر عنها الجاهلي في شعره لكنَّها تميَّزت أكثر في شعر السموأل. وطبعاً يدرى الشاعر الجاهلي بأنَّ مفاخره إذا لم تشهد لها الدلائل فلا قيمة لها وكما يتضح من البيتين أعلاه بداية يعلن الشاعر بأنَّ قومه لا يعتبرون القتل عاراً وثمَّ يعبر في البيت الثاني عن الانكسار أو اعوجاج سيوفهم بسبب كثرة قتالهم، وهذه طريقة يوظفها لإثبات مدعاه؛ وإنَّه في موضع آخر يعبر عن شجاعته وفروسيته في ساحة القتال وفي أصعب مواقف لا يتسامحها الآخرون:

أَيُّقْلَنَ لَاتَبَعَدَ فَرْبٌ كَرِيهَةً
فَرَجَّتْهَا بِشَجَاعَةٍ وَسَمَاحٍ
وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ يَشُبُّ وَقُودُهَا
أَطْفَأَتْ حَرَّ رِمَاحِهَا بِرِمَاحِي
وَكَتِييَّةٍ أَدْنَيْتُهَا لِكَتِييَّةٍ
وَمُضَاغِنٍ صَبَّحَتْ شَرَّ صَبَاحٍ³

من كلام الشاعر واضح أنَّه في موقف التعبير عن فخره بالشجاعة يتابع أسلوب باقي الشعراء الجاهليين وربما نحن حين مواجهتنا قصائد الشاعر عند التعبير عن فخره نواجه ظاهرتين متعاكستين وهما: شدة البأس وخلقه المثالي، وإنَّه

¹. ضيف، شوقي، (1970م)، البطولة في الشعر العربي، ط2، القاهرة، دار المعارف، ص17.

². السموأل، الديوان، الصفحة76.

³. السموأل، الديوان، الصفحة122، 123.

مرّة يعتزّ بمكارمه وفضائله الأخلاقية العليا ومرّة يعتزّ بشدّة قتاله ووصف مشاهدتها العنيفة وكيف يمكن الجمع بين هذين الظاهرتين.

أمّا نحن للإجابة عن هذا السؤال فلا بدّ أن ننظر إلى الأجواء المؤثّرة على خلق العربي الجاهلي وهي مأخوذة من الصحراء وطبعاً البيئة الصحراوية التي تهدّد البدوي دائماً من خطورات الطريق ومنها النهب والقتال المفاجئ تجعل حاجاته ثمرة اقتضاءات تلك البيئة وما تقيه في هذه الظروف هي قوّة سواعدهم والجرعة في قلوبهم؛ فإنّ الصحراء ستكون مكاناً ملائماً لممارسة القوة والبأس من أجل تقوية الشجاعة وليس من الممتنع أن تلك الأجواء الصحراوية التي تحكمها القوّة قد تسبّب إلى تقليب المزاج «وذلك ليس غريباً في مجتمع كان يقوم في الأساس الأوّل على الغلبة للأقوى، ولا يحكمه قانون ولا يسوده نظام معين، وإنّما تسوده أعراف وتقاليد تُحترم تارةً، وتدوسها الأقدام تارةً أخرى.»¹ ولم يستثن السموأل من ذلك وقد تأثّر بتلك الأجواء الصحراوية كما أنّه في مواضع آخر يعتزّ بقدره الفرسان وأبطال قبيلته وشدّة بأسهم في ساحة القتال حين يقول:

تَقْرِي الْعَدُوَّ وَالسَّهَامَ وَاللَّهْبَا	إِنَّ لَنَا فَخْمَةً مُلْمَمَةً
خَيْلاً وَرَجَلاً وَنَصَباً عَجَباً	رَجَاجَةً عَضَلُ الْفَضَاءُ بِهَا
أَغْلَبَ كَاللِّيثِ عَايَا حَرْباً ²	أَكْنَفُهَا كُلُّ فَارِسٍ بَطْلٍ

والواضح هنا أنّ الشاعر يرى ذروة الشجاعة في موضع الحرب، وهذه الفكرة لها جذور عريقة في الثقافة الصحراوية حيث إنّ البطولة أو الفروسية هي من أهمّ الميزات المثالية للجاهلي و«يقاتل حتى يُقتل تحت ظلال السيوف قتلة شريفة، حتى ليعد عندهم سبّة ما بعدها سبة أن يموت الإنسان على فراشه حتف أنفه»³ وكانت تعلو عندهم قيمة هذه الميزة بتواجدهم الدائم في ساحة القتال وكما أنّ الشاعر متأثر بهذه الفكرة ويفتخر بقومه حين يقول:

وَتَكْرَهُهُ أَجَالُهُمْ، فَتَطُولُ	يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا
وَلَا طُلَّ مِنَّا، حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ	وَمَا مَاتَ مِنَّا مَيِّتٌ فِي فَرَاشِهِ
وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاتِ تَسِيلُ ⁴	تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ نَفُوسُنَا

¹. مهدي، لطيفة (2010م)، مراثي الخلفاء والقادة في الشعر العباسي إلى آخر القرن الرابع الهجري دراسة في البناء والصورة والإيقاع، دار الكتب العلمية، ص129.

². السموأل، الديوان، الصفحة 102، 103.

³. ضيف، شوقي، (1970م)، البطولة في الشعر العربي، ط2، القاهرة، دار المعارف، ص17.

⁴. السموأل، الديوان، الصفحة 71-73.

كما بدت لنا أنّ للشجاعة والقوة دوراً خاصاً في تعابير الشاعر عن المفاخر القبلية والذاتية وهو يتبع في هذا الصدد الفكرة المنبثّة في الشعر الجاهلي وهي مأخوذة من أجواء سادت على الحياة الصحراوية ويحكم عليها السيف والطعان والبطل الحقيقي هو من يملك القدرة على التغلب على هذه الشدائد والصراعات، لكن هذا النوع من الشجاعة لدى السموأل يصل إلى نقطة يستحق فيها قيادة الجيوش، كما هو في موضع يفتخر بنفسه لأنّه هدى جيوشاً وقادها في أصعب الظروف:

وَ جَيْشٍ وَدُجَى الظُّلَمَاءِ مَجْرٍ يَوْمَ بِلَادَ مَلِكٍ قَدْ هَدَيْتُ¹

إنّ الفخر في هذا الموضع لدى الشاعر يعدّ نوعاً متميّزاً حيث إنّه يرفع قيمة فخره عندما يحتسب لنفسه مكانة بين القدرة والعزة خاصة أنّ اللفظين (دجى) و(ظلماء) يدلان على شدة الظروف وهذه الدلالة تؤكد على قدرته وقوّته في القيادة لكن الشاعر إضافة إلى ذلك يعتبر قومه أيضاً في موضع السيادة على الآخرين وكأنّهم يقودون باقي القبائل مما أدّت ذلك إلى تقريرهم للآخرين وهذا بسبب نيلهم إلى ذروة القوة والعزة:

وَنُنْكِرُ، إِنْ شِئْنَا، عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَ لَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ، حِينَ نَقُولُ²

6.3. حماية الجار

إنّ حماية الأقرباء والجيران تعدّ من أهمّ عادات قبائل العرب في العصر الجاهلي وهم كانوا يلتزمون بها أشد الالتزام حيث تشهد عليها قاطبة الأشعار الجاهلية. كانت القبائل يرون حمايتهم للجار من أهمّ دواعي الفخر واعتزازهم وكانوا يتغنّون بها في شعرهم وهم إضافة إلى عشيرتهم يحبّون أيضاً جيرانهم ويسعون دائماً على عزّتهم وحمايتهم في مواضع مختلفة. وأحياناً عند قراءة الشعر الجاهلي تمنعنا الأجواء العنيفة وروح الفروسية والبأس التي تمتاز الحدود الإنسانية أنّ نصدّق أو نفرض شيئاً من الرّحم تجاه الآخرين وربّما الشخص عند مواجهة هاتين الظاهرتين يظنّ بأنّ الأنانية وتغيّر المزاج دائماً يهيمنان على العربي الجاهلي كما أنّ بعض الباحثين اعتقدوا ذلك وأدّعوا بأنّ هناك نوعاً من التناقض في أوصاف العربي الجاهلي ولكي نراعي جانب الاعتدال لابدّ أن نقول بأنّ قرارات العربي الجاهلي توافقت اقتضاء الظروف التي يقع فيها وإنّّه بوقت الكرم يسعى الوصول إلى ذروته وبوقت الحرب سفّك الدماء والظروف أو الاقتضاءات التي يقع فيها تحدّد كيف يكون.

¹. المصدر نفسه، الصفحة 97.

². المصدر نفسه، الصفحة 78.

ومن إحدى هذه المقتضيات التي ظهرت عندهم هي حماية الجار على قدر حماية أفراد العشيرة ويرجع جذر أهمية هذا القانون إلى انعدام البيئة الجاهلية العنيفة من السلطة المركزية التي تنشئ القانون والأمن تجاه التعرض على الضعفاء وإعطاء حقهم «فالجوار كان نظاماً أوجدته ضرورات الحياة العربية، كبديل للسلطة المركزية للسلطة المركزية التي افتقدتها ذلك المجتمع»¹ ولقد تبلورت هذه السمة الفاخرة في شعر السموأل حيث إنه يعتز بها في مواضع مختلفة ويعلم مباشرة حمايته لجاره كما يقول في هذا الصدد:

فأحمي الجارَ في الجُلِّي فيمسي
عزيراً لأيرام، إذا حميت²

كما يتضح من الشطر الثاني أن حماية الشاعر لجاره تميزت بأنها بلا تعويض ويسبب ذلك عزته لأنها تخلو من المنّ ويقيني أن أهم قضية يفتخر بها الشاعر عند تعبيره عن حماية الآخرين هو أن مساعدته للآخرين خاصة لجيرانه تختلف بالنسبة إلى القبائل الأخرى، حيث إن هذه الحماية تؤدي إلى عزّة الجيران لا إذلالهم، كما يصرّح ذلك في البيت التالي:

وما ضرنا أنّا قليلٌ وجارنا
عزيرٌ وجارُ الأكثرين ذليل³

والواضح أن الشاعر اهتم جداً بحماية الجار دون المنّ وتارة يعبر عن تواجد هذه الميزة في نفسه وتارة يعبر عن اتسام قبيلته بها وربما عند تعبيره عن قبيلته يعتبر نفسه رائداً لهم في اكتساب هذه الصفة.

6.4. الكرم والسخاء

الكرم هو أحد مكونات مروءة العربي الجاهلي ومصدر اعتزازه بنفسه أو بقومه، وهو من صفات ورثها العرب وتأصلت فيها نتيجة لذلك ظهرت هذه القيمة في العصر الجاهلي . من عدة عوامل

على رغم تواجد القساوة والعنف في الحياة الجاهلية أحياناً نرى نماذج من التسامح والشفقة، والبذل والكرم، والروح الإنسانية التي تمحو تلك القساوة. لكن الكرم بين هذه الأوصاف له دور خاص خاصة في تلك البيئة ويمكن رؤية هذا الدور في اتجاهين: أولاً للتدريب على نقاء النفس التي أخذت صبغة العنف والأنانية وثانياً إذاعة شهرتهم بالكرم من

¹ خطيب، محمد، (2020م)، علم الاجتماع البدوي، دمشق، دار مؤسسة رسلان، ص212.

² السموأل، الديوان، الصفحة99.

³ المصدر نفسه، الصفحة67.

طريق مدحهم بهذه الميزة «ويسجلون هذا الكرم في أشعارهم مدحاً يُخلد الذكر، ويرفع الاسم، ويذيع الشهرة، ويعلي في المترلة والعزة، ويؤيُّ صاحبه ذروة الشرف والرئاسة»¹

إنَّ الكرم كما مرَّ من السمات البارزة عند العرب والسموأل له إلمام خاص بهذه السمة وكثيراً ما يفتخر بقومه لأنهم كرام وتتجلى قيمة هذا الفخر عندما يعوّض نقص قلة عدد قبيلته بكرمهم خاصة في العصر الذي كانت عدّة أفراد القبيلة أو كثرتهم علامة للفخر؛ إنه يقول:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ²

وفي موضع أخرى يعلن غير مباشرة بكثرة تواجد الكرم بين أفراد قبيلته حيث جميع أسيادهم متّسمون بسمة الكرم:

إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا، قَامَ سَيِّدٌ قَوْلٌ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ، فَعَوْلٌ³

ومن أهم مواضع يلتفت بها الشاعر جداً عند التعبير عن كرمه وسخائه هو موضع الضيافة وهو يعلن بلغة بليغة أن نار ضيافتهم لا تطفأ أبداً تجاه النازلين به، كما يقول:

وَمَا أُخْمِدَتْ نَارٌ لَنَا دُونَ طَارِقٍ وَلَا ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلٌ⁴

وبنظرة إلى المفردات الموجودة في البيت أعلاه يلفت بالنا الأمران: أولاً استعداد قبيلته الدائم للضيافة ويدل لفظ "طارق" على هذا وثانياً حُسن ضيافتهم ويدل لفظ "لاذمنا" عليه وهذا من جماليات عنصر الفخر في شعر السموأل أنه يفتخر بنفسه على حُسن ضيافته لا فقط للجار والأقرباء بل للضعفاء أيضاً:

رَأَيْتُ الْيَتَامَى لَا يَسُدُّ قُورَهُمْ قِرَانًا لَهُمْ فِي كُلِّ قَعْبٍ مَشْعَبٍ
فَقُلْتُ لَعَبْدَنَا: أُرِيحَا عَلَيْهِمْ سَأَجْعَلُ يَيْتِي مِثْلَ آخَرٍ مُعْزَبٍ⁵

¹. عبد الرحمن، عفيف، (1984م)، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ط1، بيروت، دار الأندلس، ص70.

². السموأل، الديوان، الصفحة67.

³. المصدر نفسه، الصفحة78.

⁴. المصدر نفسه، الصفحة79.

⁵. المصدر نفسه، الصفحة107.

وهو يشير في موضع آخر إلى التزامه الشديد بالكرم ويصرّح بوضوح أنّ البخل لا يغلبه تحت أي ظرف ويرى نفسه بعيداً عن هذه السمة الرذيلة لأنّها تعارض كرمه وسخاءه فيقول في موضع مشيراً إلى سخاءه للضيف:

إذا ما فاتني لحمٌ غريضٌ ضربتُ ذراعَ بكري فاشتويت¹

وطبيعة الصحراء هي أنّها لا ماء فيها ولا عشب، وبما أنّ البدوي كان يعاني من التنقل والحركة الدائمة في بيئة صحراوية لا يوجد فيها ماء ولا طعام، فإنّ العربي الجاهلي عرف قيمة السخاء والكرم تجاه ضيفه وحاجته إلى دعمه. فلذا يؤكّد السموأل على اتّسام نفسه وقومه بسمة الكرم والسخاء ويصرّح في موضع أنّ جميع الناس ينتفعون من قومه بسبب كرمهم، والبخل لا يتطرق فيهم أبداً:

فنحنُ كماءُ المزنِ ما في نصابنا كهّامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيل²

6.5. الفضائل المتميّزة الأخرى

كما ذكرنا سابقاً أنّ قيمة الفخر بمتعلقاته ودون النظر إليها لا يصحّ اعتبار الفخر في دائرة الكبرياء والعادات السلبية؛ ولكن بنظرة عامة إلى متعلقات الفخر في الشعر الجاهلي نرى أنّ قضايا من مثل الشجاعة، والفروسية والبطولة، أو حماية الجار وغيرها لا تتعلق فقط بالسموأل؛ بل إنّ قاطبة شعراء الفخريّات في ذلك العصر تناولوا في شعرهم هذه المقومات المذكورة للفخر؛ ولكن فخر السموأل يميّز إلى حد ما عن فخريّات باقي الشعراء لأنّ السموأل إضافة إلى التعبير عن مفاخر رائجة سادت شعر تلك الفترة، يعبر عن اتّصافه ببعض المكارم التي تتباعد عن سمة الجهل في مقابل الحلم مثل تحكّمه الشديد على عواطفه.

إنّه في إحدى قصائده يعبر عن عدم مبالاته بسخريّات تلحقه من جانب الآخرين، ولا ينبع ذلك من ضعفه بل يدلّ على تمكّنه على عواطفه ويتجلّى قيمة فخر الشاعر حين يعبر عن قدرته في العقاب ولكن يعترّ بقدرة تحكّمه في نفسه:

وَأَصْرِفُ عَنْ قَوَارِصَ تَحْتَدِينِي ولو أنّي أشاء بما جَزَيْتُ³

¹. السموأل، الديوان، الصفحة 121.

². المصدر نفسه، الصفحة 75.

³. المصدر نفسه، الصفحة 98.

ومن السمات البارزة التي تواجدت في العصر الجاهلي هي الحرص الشديد على الانتقام، سمة كانت تسبب غالباً إلى اندلاع الحروب وكثرتها ودوامها مما كانت تؤدّي غالب الأحيان إلى نزوح قدرة العفو والمسامحة عندهم¹، وفي الواقع كانت روح الانتقام والغضب تهيمنان على العرب الجاهليين وقد تبلورن في شعرهم. لكن السموأل أحياناً يفتخر بذاته على أنه قادرٌ على إطفاء نار غضبه في أسوأ الحالات وهو يعبر عن تحليه بسمة العفو قائلاً:

وَذَنْبٌ قَدْ عَفَوْتُ لغيرِ باعٍ ولا واعي عنـه ولا عَفَوْتُ
رُبَّ شَتَمٍ سَمِعْتُهُ فَتَصَا مَمْتُ، وَغَيِّ تَرَكْتُهُ فَكُفَيْتُ²

تبيّن لنا هذه الأبيات أنّ الشاعر لا تتواجد فيه روح الانتقام بل تميل مخالفته إلى التسامح تجاه الآخرين كما أنه في موضع آخر يعتبر نفسه غير مخاصم وغير ملاح في أخذ الحق وإعطاءها:

ولقد أخذتُ الحقَّ غيرَ مُخاصِمٍ ولقد بذلتُ الحقَّ غيرَ مُلاحٍ³

ما يبيّن لنا البيت أعلاه هو أنّ الشاعر ثبت لديه أنّ الحياة لا قيمة لها بدون سلام وهذه الفكرة لدى الشاعر أوجدت فيه خلقاً عظيماً وطبعاً لطيفاً مما جعلته متميّزاً حيث إنّ جميع الناس ينتفعون به ويعتمدون عليه خاصة في أصعب الظروف، كما يصرّح الشاعر ذلك:

و داهيةٍ يَظَلُّ النَّاسُ مِنْهَا قياماً بالمحارِفِ قد كفيت⁴

ونقاء السريرة والجوهر من ميزات أخرى تحلّى بها الشاعر فإنّه يعبر عن صفاوته ضميره:

فاجعلِ الرِّزْقَ في الحلالِ مِنَ الكس بٍ وِبِراً سَرِيرَتِي مَا حَيَّتْ⁵

وفي موضع آخر يتسم قومه بهذه الميزة ويقول فاحراً بهم:

1. آذرنوش، آذرتاش، (1384ش)، تاريخ زبان وفرهنگ عربي، ط5، طهران، منشورات سمت، ص55.

2. السموأل، الديوان، الصفحة84، 97.

3. المصدر نفسه، الصفحة122.

4. المصدر نفسه، الصفحة100.

5. المصدر نفسه، الصفحة86.

صَفَوْنَا وَلَمْ نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرُّنَا إِنَّا أَطَابَتْ حَمَلَنَا وَفُحُولُ¹

ولابدّ أن نقول بأنّ نقاء الطينة أو نقاء السريرة له مكانة خاصّة عند الشاعر وهو يتمتع بالتعالّي الفكري حيث إنّ الظواهر الماديّة باعتقاده لا قيمة لها والمهم أنّ الإنسان ينقى سريره وباطنه وأن لم يُدنس جوهره من الدناءة؛ إنّّه في أشهر قصيدته التي تُعبّر عنه بقصيدة "إنّ الكرام قليل" يمجّد قومه بوصفهم أصحاب الكرم ويختصّ البيت الأوّل من هذه القصيدة بذكر أفضليّة باطن الإنسان على ظاهره وينوي غير مباشرة إبراز نقاء الطينة لقومه؛ إنّّه يقول:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرِضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ²

ما يبيّن لنا هذا البيت هو أنّ الشاعر يعبر عن ذروة اهتمامه بجمال رداء الباطن إزاء الرداء الظاهري؛ والابتعاد عن الدناءة أو اللؤم في الحياة هو العنصر الإنساني الهامّ الذي لا شك ولا معارضة فيه وهو من العناصر المثاليّة في حياة الإنسان، وهذه الفكرة المثاليّة التي نحسّ بها في هذا البيت تنبع من أصالة تحرق الحدود الزمنية والجغرافيّة التي يعيش فيها الإنسان؛ إذن هذا التعبير من قبل الشاعر يُزيد قيمة فخره ويُزيّنه بالأصالة؛ حيث إنّّه ليس متأثراً بالفكرة التي كانت سائدة في العصر الجاهلي بل هو متأثر بالفكرة الإنسانيّة التي هي وراء حدود تلك البيئة العنيفة وعناصر مثاليّة من مثل هذا أحياناً نجدها في شعر الشاعر، وهي عناصر يمكن أن يتعامل معها الإنسان بمفهومه العام، حيث لا تتعلّق بفترة زمنيّة محدّدة.

7. الخاتمة:

أمّا في قسم الخاتمة فنذكر أهمّ النتائج التي توصلنا إليها من خلال دراستنا حول مظاهر الفخر في شعر السموأل بن عاديّا، فأهمّ النتائج التي أبرزت هذه الدراسة تكون على النحو التالي:

- يمكننا رؤية كلا النوعين من الفخر - الذاتي والقبلي - في قصائد الشاعر وكثيراً ما نرى حالة من الاختلاط أو الاتّحاد بينهما وفي بعض المواضع يعبر الشاعر عن مفاخره ويرى تلك المفاخر أيضاً في قومه وكأنّه يلعب دور رائد للتعبير عن مفاخر قبيلته.
- من أهمّ مواضع الفخر القبلي في شعره يمكن الإشارة إلى القوّة والشجاعة في ساحة القتال، والكرم، والسيادة على القبائل الأخرى؛ وهو عند التعبير عن مفاخر قبيلته خاصّة في موضع القوّة وشجاعة قومه يتبع أسلوب باقي الشعراء الجاهليّة.

¹ . المصدر نفسه، الصفحة 74.

² . المصدر نفسه، الصفحة 66.

- ومن أهمّ مواضع الفخر الذاتي في شعره يمكننا أن نشير إلى الوفاء والمكارم التي لا تنحصر فقط بزمانه بل هي نابعة عن الأصالة والجوهر النقي الإنساني وهي تدلّ على تعالي أفكاره، وفي الواقع تتبلور ذروة قيمة فخر الشاعر في موضع التعبير عن ذاته المفتخرة حيث إنّهُ لا يتّجه إلى ذكر القضايا الماديّة والظاهريّة بل يركّز على الفضائل الأخلاقيّة التي قلّما نجدها في ذلك العصر ومنها: التحليّ بروح التسامح، والابتعاد من الغضب وروح الانتقام، وكثرة الاهتمام بنقاء السريّة والانتفاء للآخرين.
- يمكن رؤية التأثير الواضح بالبيئة الصحراويّة في بعض المفاخر التي يعبر عنها الشاعر وخاصة في موضع اعتزازه بالقوّة وشجاعته في الحرب وفي الحقيقة الشاعر مرّة يعبر عن قدرته في اندلاع الحرب وشجاعته في تلك الساحة ومرّة أخرى يعبر عن أمجاده وفضائله الأخلاقيّة وكأنّه ينوي أن يجمع في نفسه جميع الأوصاف المثاليّة إمّا المثاليّات المتأثرة بتلك البيئة ومن أبرزها الشجاعة والقوّة أو المثاليّات الأخلاقيّة بالشيم الرفيعة خارجة عن النطاق الزمنيّ.

8. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم.
- آذرنوش، آذرتاش، (1348ش)، تاريخ زبان وفرهنگ عربي، ط5، طهران، منشورات سمت.
- ابن منظور، جمال الدين، (2009م)، لسان العرب، م5، دار الكتب العلميّة.
- حرب، طلال، (د.ت)، ديوان مهلهل بن ربيعة، دار العالميّة.
- حريجي، فيروز والآخرين، (2011م)، تصوير فخر در سروده های ابوفراس حمداني، مجله ی انجمن ايراني زبان وادبيات عربي، العدد 18.
- خطيب، محمد، (2020م)، علم الاجتماع البدوي، دمشق، دار مؤسسة رسلان.
- الدليمي، نهي محمد، (2019م)، الحياة والموت في شعر صدر الإسلام، كلیّة الآداب، جامعة الموصل، دار الخليج.
- الزبيدي، مرتضى، (2011م)، تاج العروس من جواهر القاموس، م13، دار الكتب العلميّة.
- السيد عبده، عبد الهادي، (2021م)، المعرفة بين الانفعال والأخلاق، مكتبة الأنجلو المصريّة.
- شمس الدين، إبراهيم، (2013م)، قصص العرب، ج1، بيروت، دار الكتب العلميّة.
- شوقي عبد المحسن، شعبان، (2015)، الفخر الذاتي في معلّقة طرفة دراسة بلاغية نقدية، العدد 34، الجزء الرابع.
- شيخو اليسوعي، لوئيس، (1920م)، ديوان السموأل، ط2، المطبعة الكاتوليكيّة للآباء اليسوعيين.
- ضيف، شوقي، (1970م)، البطولة في الشعر العربي، ط2، القاهرة، دار المعارف.

- عبد الرحمن، عفيف، (1996م)، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ط2، بيروت، دار المناهل.
- عبد الرحمن، عفيف، (1984م)، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ط1، بيروت، دار الأندلس.
- العرداوي، عبد الإله وأحمد، فاطمة، (2019م)، الذات المفتخرة في شعر جمهرة أشعار العرب، العدد 52.
- الفاخوري، حنا، (د.ت)، الفخر والحماسة، ط5، القاهرة، دار المعارف.
- المؤمني، عمر والمؤمني، إنصاف، (2013م)، مظاهر الفخر في شعر أبي الطيب المتنبي، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد 152.
- محمد، سراج الدين، (2000م)، الفخر في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية.
- المطرفي، منى عبدالله، (د.ت)، الفخر الذاتي في شعر أبي فراس الحمداني، العدد 32.
- مهداوي، لطيفة (2010م)، مرثي الخلفاء والقادة في الشعر العباسي إلى آخر القرن الرابع الهجري دراسة في البناء والصورة والإيقاع، دار الكتب العلمية.
- نفطويه، أبي عبد الله، (1416ه.ق)، ديوان السموأل، تحقيق وشرح: واضح الصمد، ط1، بيروت، دار الجليل.